فى الكتب

ما كنت اتمنى أن أقرأ

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

ليس أكثر من الكتب فى الدنيا ، ولعلها الشىء الوحيد الذى يزيد ولا ينقص ، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التى بقى لنا منها أثر — ودع ما نقل بعضهم عن بعض — جمع فى مكان واحد ، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التى تزحف بها على الريف من ناحية ، وعلى الصحراء من نواح ، وليس أشد شرها ممن يستقل ذلك ، أو لا يرى فيه غناء ، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان ، فما أعنى أن فى الموجود من الكتب ما ينبغى عن الاستزادة أو يصدّ عن التطلع ، أو ما يكتفى به العقل الانسانى عن المضى فى البحث والتقصى ، وإنما أعنى أنه حسب من شاء أن يقرأ ، فما يتسع عمرٌ — مهما طال — للالمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول ، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (! !) وزيدت عليه ، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله ، ولكنى ، مع ذلك ، أرانى أحياناً — وأنا جالس بين ما بقى لى من كتبى — أتحسر وأتمنى : أتحسر لأن مطبوعاً من هؤلاء المؤلفين ، على الشعر ، أبى إلا أن يكون جاهلا نفسه ، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك ، وذهب يكتب . أو أن كاتباً فذاً غالط نفسه فراح يقرض الشعر ، ويجىء بالشّ ويحسب أنه صنع شيئاً ، وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدة فى معنى يخطر لى ، وأراه كان أقدر على صوغه ، أو وضع كتاباً فى بحث معين ، أو كتب قصة مثلا ، أو أردف ما كتب بشرح ما يعنى ، كأنما كل هذه الكتب لا تكفى ولا تقنع !

وأتساءل أحياناً — لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر سقط الزند وبعض اللزوميات ، وزادنا من مثل رسالة الغفران ، أكان هو ينقص شيئاً أم كان يزيد ؟ ؟ وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب ؟ ؟ كنا نربح فيما أعتقد ، ولم يكن يضيع علينا شىء من نظمه لا نهمله الآن ، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف ، ليرضى غروره ، وليتعزى أيضاً باظهار اقتداره . وإنه لفحل عظيم ، وما يطيب لى أن يظن أحد أنى أغمطه أو أنزله دون منزلته ، وانى لأعلى به عيناً من أن يخطر لى أنّ فى وسعى أن أظلمه ، ولكنى كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة ، وفى يقينى أنه لو كان فعل ، لبلغ القدوة واستولى على الأمد

ويؤسفنى أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة . أما لو كان فعل ! ؟ أين بين كتاب العرب ، من كان أقدر على ذلك منه ، وأولى بأن يكون أبرع فيه ، وأسحر وأفتن ؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بلغته ؟ من له مثل فطنته ونفاذ نظره ، وفكاهته ، وحسن تأتيه ، ولطف مداخله ، وحذقه فى التناول والعرض ، ودقته فى فهم الناس واستبطانهم ، والاحاطة بجوانبهم المختلفة ، والتفطن إلى نواحى الجد والهزل فيهم ، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك ، وإرباء ذاك على هذا ؟ ؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً ! ؟ أترى كان يستطيع — لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة — أن يحول مواهبه إلى هذه الجهة ؟ ؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر ، على الأداء ، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه ، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره ، ينطق بما حمله من المعانى ؟ ومن يدرى ؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصور ، وأداة هذا غير أداة ذاك ، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب ، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة ، والسكون لا ينفى التعبير والنطق ، وقد يكون أنطق ، وأبلغ فى نطقه من الكلام . فهل كان بيان الجاحظ — وهو فيض لا تصده السدود — يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع ، والنطق بقوة الابراز لا بفضل الانسياب أو التدفق ؟ أعود فأقول ، لا أدرى ؟ .

وتمنيت ، وأنا أدير عينى فى كتبى على رفوفها ، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بينوا لنا — أو لى أنا على الأقل — ماذا يريدون أن يقولوا . عجيب أمرهم والله ! قرأت مرة لأحدهم — وأظنه « هجل » فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله — كتاباً فى « فلسفة التاريخ » فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسى : إما انى أنا حمار ، وإما أن هذا الرجل

لا يحسن العبارة عما في رأسه ، ولكني أفهم عن غيره فلماذا أراني لا أفهم عنه ؟ ؟ وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل انسان مثلي ؟ وكان في هذا الكتاب فصل عن المدنية الاسلامية أو عن تاريخ العرب — فقد نسيت — خيل إلي أني فهمت أقله ، ودارت الأيام ، ووقع في يدي كتاب لرجل أمريكي اسمه « دريبر » عن المدنية ونشوئها ، يكتب كما يكتب خلق الله — لا الألمان — فاذا فيه فصل طويل عن العرب بعد تطبيقاً لنظرية هجل التي لم أفهمها ، فسألت نفسي : لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل ؟؟ ثم عدت أسألها وأتعجب : لماذا فهم « دريبر » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟ وأسأت الظن بنفسي واعتقدت أن بي نقصاً في التدريب العقلي ، وراجعت « هجل » وكررت إلى هؤلاء الألمان الموصين كرة الصمم المستميت ، ولكن مضغ الجلاميد أعياني ، فنفضت يدي منهم — ومن نفسي — يائساً ، وقلت : يا هذا ، لقد صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع عنهم ، وانج بنفسك منهم

ولست أعرف أن للمتنبي نثراً ، وإن شعره لحسبه ، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر ، أو يحشم نفسه جهداً في باب غيره ، ولكني مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه في مصر ورحلته إلى « الأستاذ » كافور ! ألا يشعر القارئ معي أن كنوز الأدب العربي ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبي في « كافور » ؟ يالها من تحفة نادرة ، ضن بها علينا المتنبي ؟ ؟ أتراه لم يخطر له هذا قط ؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم ؟ لقد كان مقلا ، وليس ديوانه الذي خلفه بالذي يستنفد عمر مثله أو جهده ، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة ؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظوماً ، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن ؟ وخواطره لا تتنظم أو تتسق إلا على النغم ؟ ربما

وينقص الأدب العربي — في رأيي — اعترافات رواته ، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع ؟ وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته ، فليت واحداً منهم كانت له جرأة « روسو » اذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة ، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التي لا تراها تغربل شيئاً ، ولأمكن أن تنفق الأعمار التي تضيع في هذا البحث ، فيما هو أجدى . ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصاً من أمتع ما في الآداب ، غربيها وشرقيها ، ولكشفوا لنا عن خصائص ، نفسية وعقلية ، ينفع الناس العلم بها ، ولتسنى أن نطل هذه الفوضى التي أغرق فيها الرواة أدبنا ، ولاسيما القديم منه . ومن الشيق لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها في قصيدة لشاعر قديم ، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين ، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق ، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان ، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين في الصحراء ؟ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة في سبيل مزية أصغر منها ، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب في القريحة ، وعلى قوة الخيال ونشاطه ، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعراً مجيداً أو قصاصاً بارعاً ؟ ولكنهم يزهدون في ذلك ، ويظلمون أنفسهم ، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب ؟ أي حفاظاً ليس إلا ؟ أي خزانة مفتاحها في لسانهم ؟ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا ، وتوخوا الأمانة في الحفظ والرواية ، لعدوا علماء ، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان ؟ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة ، ويروحون يزورون ويفترون ويلفقون ، ويظهرون في ذلك من الحذق والبراعة مالو أظهروا بعضه في غيره لرفعهم مقاماً عالياً . فلا بد أن يكون هناك عوج في طباعهم والتواء في عقولهم يزيغان لهم الطريق الذي سلكوا ، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم ، ويغريانهم بإهمال مواهبهم ، أو سوء استخدامها

وعلى ذكر الاعترافات أقول إني لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسي الفاجر ، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه في زمانه ، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لساناً وأقواهم بياناً ، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهماً للحياة وحسن إدراك لها ، وما في الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه ، كما يفعل غيره ، ولم يحاول أن يستر لما ابتلي ، ولولا أنه شاعر لما شُغل بقصصه أحد ، والشهرة هي التي جنت عليه فأبرزت جانب السوء والاستهتار من حياته ، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب . فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس ، وماذا كان يمكن أن يكون في اعترافاته مما يجهله الناس ،